كتاب في مقال

القرآن.. والمسرح
والالتزام بالعقيدة

تأليف : د. محمد كاظم الظواهري

عرض : ابو علي حسن

الموقف

□□ في البدء : ولد المسرح دينياً .. في أمتنا عرف المسرح بالسخرية من هذا الدين ! وتلك ولادة غير شرعية .

ازدهر لفترة : في مصر وسائر بلدان أمتنا .. ولكن حقائق عدة غابت عن ذهن المتفرج .. فكثير مما رآه وأسماه مسرحاً : قمامة لندن وباريس ! وخير الأعمال المعروضة بضاعة مستوردة . واغلب جوانبه الفكرية : اسقاطات ايديولوجية وسموم عقائدية ، والأبواب مفتوحة لكل راغب عن الدعوة الاسلامية أو مُزْجٍ لعادات وتقاليد الجاهلية !

لكن الايجابية - سمة الشخصية الاسلامية - لا تدع الباحث : يقف كالمتفرج .. وجاء الدكتور محمد كاظم حسن الظواهري من كلية اللغة العربية في الأزهر الشريف ليقدم لنا أطروحته للدكتوراه متناولاً ثلاث قضايا :

١ - الأصالة والتأثر .
٢ - الفصحى والعامية .
٣ - الالتزام .

ويجعلها تحت عنوان : قضايا النص المسرحي المعاصر في مصر □□

ريادة المسرح نشأت مستوردة :

أكثر من خمسين في المائة من النصوص المسرحية المعروضة مستوردة : مترجمة ، أو مقتبسة ، بل وصلت إلى مائة في المائة في أحيان كثيرة خاصة في سنوات الركود ، فهناك تناسب طردي بين الاستيراد والركود .

وذلك ادى إلى :

١ - **استيلاء الآداب الأجنبية على العاملين في هذا الحقل ، وما يتبع ذلك من تشبع القلوب والعقول بمضامينه واشكاله** ، حتى إن كانت هذه المضامين وتلك الأشكال مما يخالف الأعراف الفنية والأدبية والاجتماعية والاعتقادية .

وعليه ، فإن أي إفراز أدبي أو تصور أو نقد سوف يكون نابعاً من منطلقات لا تمثل روح الفن العربي الاسلامي ، وسوف يكون خالياً من الأصالة المطلوبة لفن أمة آخذة في النمو والازدهار ، بعد أن أفقدتها كبواتها أمام أعدائها شخصيتها المتفردة بين الأمم على مر التاريخ .

٢ - **ضحالة وقلة النتاج الأدبي المسرحي الذي يجود به الكتاب بالنسبة لما ينتظر منهم** ، فهو من جهة الكم لا يملأ الفراغ المتاح ، ومن جهة الكيف لا يفرض نفسه على أهل هذه الصنعة ، أو على جمهور المتلقين ، لأنه في جملته : صور شائهة لا تصل إلى مستوى الأدب الغربي ، لا في فنيته ولا في أصالته - بالنسبة لأهله . لا ولم تصل هذه الصور إلى درجة الصفاء والأصالة بحيث تمثل أمتنا العربية الاسلامية .

الاستيراد .. والفصل التعسفي بين الفن والأخلاق !

ولأن المسرح أداة فعالة ، ولها سحر وسلطان على الناس ، فلقد حرص الغربيون على طمس هذه الحقيقة بإيهام أمتنا بأن الفن شيء والفكر والأخلاق شيء آخر ، وصدق بعضهم هذا المفهوم ، ورده الكثيرون من أدبائنا تحت رداءات الموضوعية والعلمية ، وكان هذا وما يزال من أخطر المفاهيم الأجنبية المستوردة ، فكان قيداً على الأخلاق والمثل والقيم كيلا تنفذ من خلاله إلى المسرح ، وفي الوقت نفسه كان يفتح الباب - وما يزال - على مصراعيه أمام الأدب المكشوف وكل ما يناقض القيم والمفاهيم الاسلامية مما يعرض ويزخر به فن المسرح .

والأدب المسرحي الغربي الذي تأثر به كتابنا مبني على فقدان الثقة بالخالق عز وجل ! وعلى عدم الإيمان بجدوى الوجود والحياة ، وعدم الإيمان بمعقولية العقل ومنطقية الفكر ، بل انه يزخر بروح تشاؤمية مفرطة نتيجة عدم الإيمان ، **ونتيجة للفصل التعسفي بين الفن والأخلاق والدين رغم نشاة هذا الفن والمسرح أساساً في ظل الدين !**

○ الصراع بين الفصحى والعامية ، قضية إسلامية في المقام الأول ، ومناصرة الفصحى واجب إسلامي صميم .

○ لقد كان النص المسرحي هو المجال الأرحب لتزويد العامية بأغزر تراث مكتوب لم تكن تحلم به .

محمد كاظم الظواهري :
○ استيلاء الآداب الاجنبية على العاملين في حقل المسرح ○

الهزيمة والشلل النصفي !

يقول **الدكتور الظواهري** : بوقوع أحداث ١٩٦٧ حدث ما يشبه الشلل النصفي للمسرح ، إذ فقد الكثير من حيويته ، على الرغم من عدد المسرحيات التي خرجت لتعبر عن الأحداث (**كالمسامير**) **لسعد الدين وهبه** ، **وقضية فلسطين** (٤) **مسرحيات** ، ولكن منذ ذلك الوقت لم يستطع الكثير من المؤلفين أن يستمروا في أداء الدور الذي كان ينتظر منهم أن يقوموا به .

ومنذ عدة سنوات مضت .. **وإلى اليوم** : **يعيش المسرح في مصر على بقايا وفتات ما جاء به كتابه في مرحلتي النمو والازدهار - رغم استيرادها !**

النهاية الطبيعية :

وقد يبدو أن هذه النهضة وهذا النمو ، وتلك الخاتمة المأساوية المحزنة للمسرح في مصر ، كانت وليدة تفاعلات بيئية فنية وسياسية واجتماعية ، واستجابة للمتغيرات التي تمليها طبيعة المرحلة ، ولكن الواقع والدراسة المتعمقة يثبتان أن هذه الظواهر كانت إلى حد بعيد وليدة تأثيرات أجنبية ، **وأن هذه النهاية التي آل إليها امر النص المسرحي في مصر كانت نهاية طبيعية جداً لأدب تنكر لشخصية مجتمعه ومعتقداته واخلاقه وذوقه وفنه .. ولم يكن قريباً من اسس الفن المسرحي ذاته !**

لغة الحوار المسرحي .. بين العامية والفصحى :

أثبتت الأيام : ان افتراض حسن النية في قضية الصراع بين العامية والفصحى لا يجدي ، وأنه ضرب من الغفلة أو السلبية أو التعامي عن الحقائق !

فلقد ثبت لدينا أن الدافع الاول والرئيسي للدعوة للعامية - بشتى صور هذه الدعوة - هو الحقد على الاسلام والقرآن الكريم ، وأن المحرض الذي دفع إليها واغرى ببذل الجهد في سبيل نشرها هم ورثة الصليبية من المبشرين ، إما من النصارى او اليهود ، وإما من المخدوعين بحضارة أوربا وبهرجها وزين لهم سوء عملهم فراوه حسناً !

والملاحظ أن :

- أول من تولوا كبر هذه الدعوة - إلى العامية - كانوا من المهتمين بالمسرح ومنهم **المؤلفون المسرحيون** .
- أن المسرح كان - منذ وجد في بلادنا - وما يزال هو المجال الرحب الواسع الصدر لهذه الدعوة ، ولم يدخر وسعاً في خدمتها ومدها بكل أسباب الاستمرار والبقاء ، وكذلك هو لكل دعوة هدامة أو غرض مريض .

المتصدون العُزّل !

وقامت قوى أربع تقود الصراع : لنصرة العامية على الفصحى في سائر المجالات وخاصة المسرح :

- أعداء الاسلام من المستعمرين وعملائهم .
- حركة التمصير باسم الوطنية .
- حركة التمصير باسم الفرعونية .
- الهازلون .

ولم يقف في ساحة هذا الصراع من أنصار الفصحى إلا أفراد من رجال الفكر والأدب والدعوة الاسلامية أمثال : **الشيخ محمد عبده ، والشيخ علي يوسف ، والشاعر حافظ إبراهيم ، والأديب مصطفى صادق الرافعي** .

ولا يخفى أن هؤلاء - على فضلهم - ومن على شاكلتهم ، لم يكونوا على علم بأسلحة أعدائهم ، وأولها المسرح ، وربما أيضاً لم يكونوا على علم بأهدافه ، كما أن المعركة كانت دائرة بعيداً عن الساحة التي يقفون فيها ، ولهذا استشرى هذا الداء في التأليف المسرحي أكثر من أي مجال آخر ، على الرغم من أنه قضي عليه في كثير من المجالات كالصحافة والأدب القصصي ، وأصبح الشغل الشاغل لمؤلفي المسرح من أتباع هذه الدعوة تحقيق غاية كبرى وأمل منشود هو محاولة مدّ العامية بتراث مكتوب ودعامة تكون عموداً فقرياً لها ، يدفع بها إلى مصاف اللغات الأدبية والمكتوبة ذات التراث الفكري والفني .. ولكن هيهات !

اللغة العربية ومعالم الشخصية :

لقد مثلت اللغة في كيان أمتنا

○ حافظ إبراهيم : الانتصار للفصحى ○

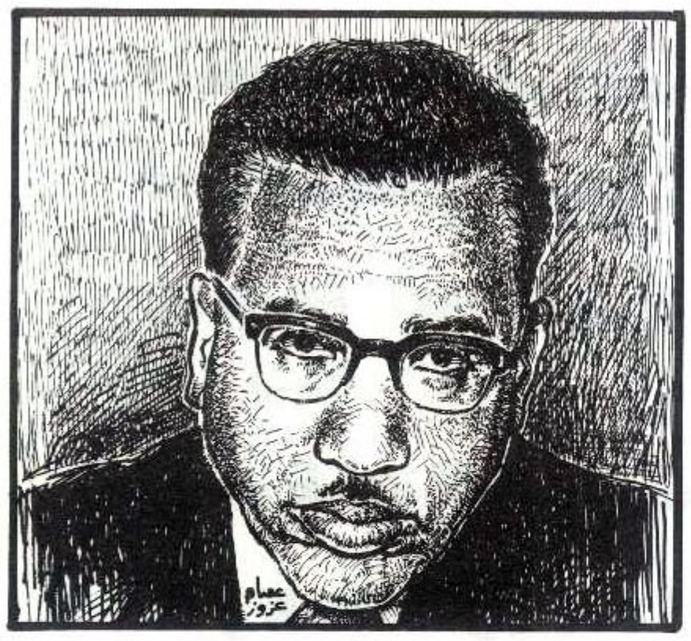

○ علي احمد با كثير :
الالتزام بالحقيقة في الاعمال الادبية ○

الاسلامية معالم شخصيتها لا أداة حوار فقط كما في الأمم الأخرى .. ولقد فطن الأعداء والخبثاء إلى هذا فحاربوا الاسلام في شخصها ، ولقد شهد القرن الرابع عشر الهجري تأجج نيران الحقد على الاسلام بهذا الأسلوب الخبيث ، قام به عدد من المستشرقين والمستغربين ، منهم (**لويس عوض**) و (**سلامة موسى**) .

وظل (**لويس عوض**) يحرص بين الحين والآخر ـ كما فعل في العام الماضي وأصدر كتابه (**مقدمة في فقه اللغة العربية**)ـ على طعن اللغة ومحاولة تجديد الدعوة إلى نبذ اللغة العربية واستبدال لغة أوربية بها ، حروفها لاتينية أو على الأقل إحلال العاميات العربية محلها لتفتيت وحدة العرب وحبسهم عن تراثهم وتفريق المسلمين اشتاتاً من تحت رايتهم ..

فالقضية : الفصحى والعامية ، هي قضية إسلامية في المقام الأول !

العامية ومجال المسرح :

ولقد كان النص المسرحي هو المجال الأرحب لتزويد العامية بأغزر تراث مكتوب لم تكن تحلم به .. وكتاب المسرح ـ بعد هؤلاء ـ لهم دوافع قد تتفق معهم أو تختلف في تفضيلهم الكتابة بالعامية ، فالجانب الأكبر منهم : يدفعه الجهل وإيثار السلامة ، والآخر : يؤثر مصالحة الهيئات والحرص على رضاها ، والثالث : تجود عليهم العامية بزاد طيب من القفشات والنكات والتوريات التي لها في ذهن السامع خلفية تزيد من جرعة الإضحاك المبتغاة .. ولو على حساب القيم الدينية والفنية .

والرابع : هم جماعة من الماركسيين الذين يتخذون العامية شعاراً للغة الشعب والطبقة العاملة .. وهؤلاء جميعاً يدعون إلى أن العامية تستطيع أن تقوم بمتطلبات الفن وشؤون الحياة وأنها لغة شاعرة !؟

لغة المسرح المثلى :

وعلى الرغم من هذا كله .. فقد قصرت الدراسة نفسها على أن تتجه اتجاهاً محايداً علمياً ينطلق في سبيل البحث واستنباط مقومات اللغة الفنية للنص المسرحي ، وذلك بعد استعراض أساليب الكتاب في التعبير المسرحي ، ومآخذ النقاد واختلافهم ومعاركهم وآرائهم حول النص المسرحي ولغته .

وتوصل الباحث إلى أن القرآن الكريم هو أنموذج المثل الأعلى للفن الاسلامي ، وأن النظرية المثلى في علم الجمال وقواعدها وقوانينها يسهل استنباطها من أعطافه ..

وبهذا المركب الصعب نستطيع أن نثبت أن شموخ وجلال الفن في النص الرباني لا يحول بينه وبين أن يصبح مثلاً أعلى لحوارات البشر في آدابهم التي تقف دونه بمراحل يحصيها علام الغيوب !

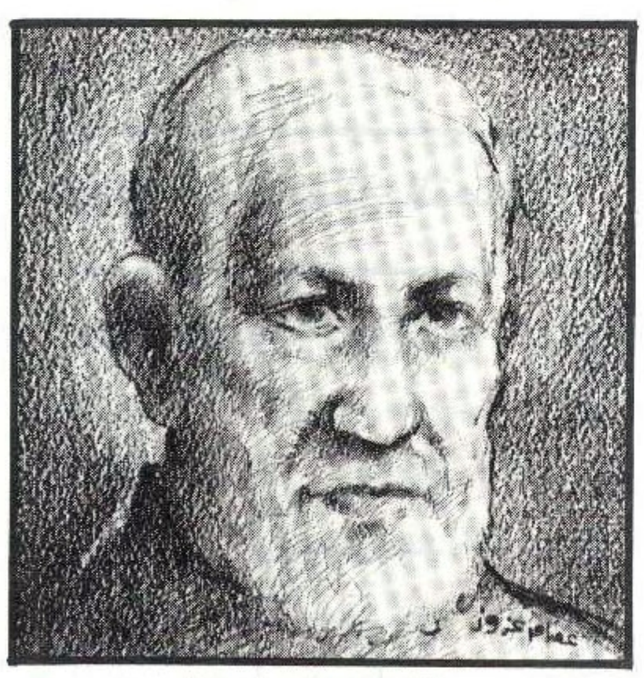

○ فرويد : تخرصاته في التحليل النفسي .. اخطات اكثر مما اصابت ○

ولنا في هذا أن نتساءل عن حقيقة ما يسمى **بعالمية الأدب** ولغته ، فلقد استطاع الغرب أن يفرض علينا تراثه الأدبي ، ونجح في إقناع الأمم المبهورة به بعالمية هذا التراث ، ووضع نصب أعيننا نماذج من أعمال كبار كتابه عبر التاريخ ، وقال لنا : احذوا حذوها ما استطعتم ، فسمعنا وأطعنا وغفلنا عدة حقائق :

- **ان عالمية هذه الآداب والنماذج حكم قضى به غيرنا وسلمنا به .**
- **ان هذه الآداب لا تخلو من مآخذ تؤخذ عليها أو أمور تختلف عما الفنا من عادات وتقاليد ، وحس جمالي وفني ، ولا تخلو كذلك من لمحات كثيرة تسيء إلينا .**
- **ان هذه النماذج مهما كانت جودتها ، فإننا نملك في تراثنا الأدبي ما هو أعظم منها .**

الحاجة لمنهج جديد :

إن حاجتنا لمنهج جديد لدراسة

○ علي يوسف ـ مصطفى صادق الرافعي : لم يكونا على علم كامل بأسلحة اعدائهم ○

○ توفيق الحكيم :
التدني والدعوة إلى اللغة الثالثة ○

القرآن الكريم حاجة ملحة ، وإن اقتصار الجهد على جهود علماء البلاغة النظرية وتقعيد القواعد مع اهمال الجانب التطبيقي للنص عامة .. أمر واجب النظر .

ولقد حاول بعض المفسرين أن يعثروا على مواضع التناسق في آي القرآن **فلم يصلوا إلا للترابط المعنوي في بعض المواضع دون بعضها الآخر ، ودون الاهتداء إلى حقيقة شاملة .**

أما الباحثون في البلاغة وفي إعجاز القرآن وهم الذين خلي بينهم وبين البحث في صميم العمل الفني في القرآن ، **فقد شغلوا انفسهم بمباحث عقيمة حول اللفظ والمعنى وغلبت على بعضهم روح القواعد** .. رجل واحد من البلاغيين هو الإمام عبد القاهر الجرجاني هو الذي أوشك أن يصل إلى شيء كبير ، لولا أن قصة المعاني والألفاظ لاحقته وظلت تخايل له من أول كتابه دلائل الإعجاز إلى آخره .

يقول الدكتور الظواهري :

إننا في أشد الحاجة إلى منهج جديد لدراسة هذا الكتاب المعجز ، على أن يضع المنهج نصب عينيه أموراً ثلاثة :

١ ـ البحث عن الأصول العامة للجمال الفني في القرآن الكريم ، وبيان السمات المطردة التي تميز هذا الجمال عن سائر ما عرفته اللغة العربية وغيرها من أدب ، وتفسير الاعجاز الفني تفسيراً يستمد من تلك السمات المتفردة في القرآن الكريم .

٢ ـ الافادة من القرآن الكريم إلى أبعد مدى في وضع حجر الأساس لصرح نقدي فريد ، تنبع قواعده من مصدر غير ذي هوى ، وتتم على أساسه الدراسة النقدية للنص المسرحي كنص أدبي ، ويتم تقويمه .

٣ ـ البحث في مقومات اللغة للحوار المسرحي ، متعقباً في ذلك الآداب الأجنبية والأدب العربي ، ومستفيداً من كل جهد سابق في هذا المجال ومستنبطاً الأسس والقواعد التي تتشكل من خلالها سمات الحوار الفني للمسرحية .. وهنا يقدم لنا المنهج مثلاً أعلى للغة الفنية، متمثلاً في القرآن الكريم .

المسرح الشعري ... وغنائية الشعر العربي :

وكان هناك في نهاية القضية تساؤل

○ سارتر : جاءت وجوديته نتيجة لأزمة المجتمع الغربي بعد الحرب ○

طرحته الدراسة :

هل تتعارض هذه الغنائية وطبيعة الحوار المسرحي ؟

هذه الغنائية بهذا التركيز في شعرنا صالحة وضرورية للمسرح الشعري الذي يرقى بالناس فوق الحياة المادية التي يحيونها ، فهذا النثر الموقع الذي يسمونه شعراً يجب محوه من بين الأساليب التي تصلح للغة الحوار المسرحي ، ولا يبقى إلا **الشعر الحقيقي يليه النثر الفني الذي يتحرك بروح الشعر** ، ليدفع الحوار والحدث بعامل المقاومة .. وهو ما وجدناه في أسلوب **باكثير** ، وفي أسلوب الحكيم قبل أن يتدنى إلى مستوى « لغته الثالثة » ـ **التي ليست هي فصحى العامية ولا عامية الفصحى ، إنما هي العامية بعينها** ـ .

الأدب المسرحي .. وقضية الالتزام

يقول الباحث :

إن القضية هي فقدان التصور الاسلامي لمعنى الفن ووظيفته في هذه الحياة ، وعلى المسلم أن يعي خصائص التصور الاسلامي لكل شيء ومقوماته ، ثم يطبقها على الفن وفي يسر متناه يجد نفسه وقد خرج من هذا التيه : خرج بالحقيقة :

- الحقيقة المطلقة التي عناها (هوجو) بقوله :
« ليس المسرح بلد الواقع ، ولكنه بلد الحقيقة » .
- الحقيقة التي لم يستطع بشر أن

يتوصل إليها بمعزل عن الوحي الإلآهي .. لقد بذل الانسان أقصى جهد فلم يَعْدُ مجهوده أن يكون تخرصات تخطىء أكثر مما تصيب ، فكان من نتاجها المذاهب المادية في العلم كنظرية (داروين) وفي الفلسفة كفلسفة (نيتشه) و (كانت) وغيرهما ، وفي المجتمع والتاريخ والاقتصاد كنظرية (ماركس) ووجودية (سارتر) وفي النفس كنظرية (فرويد) .. وغيرها .. ولكن أحداً لم يستطع قط أن يتوصل إلى الحقيقة المطلقة كما صنع الاسلام ، إذ فسر للناس لغز الحياة المحير وعرفهم الغاية من خلقهم وهي : عبادة الله تعالى بمعناه الواسع الذي يشمل الحياة كلها ، في إطار من الصلاح والإصلاح والسعي إلى مرضاة الله سبحانه .

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) (الذاريات : ٥٦) .

الحقيقة في العمل المسرحي :

إن العمل المسرحي ليس نسخة من الطبيعة ، وليس تقليداً لها ، وإنما هو تكثيف لها ، وهو ما فهمه (هوجو) من قول (هوراس) عن الدراما انها انعكاس للحقيقة ، لأننا لا يمكننا أن نتصور أن علاقة الدراما بالحقيقة علاقة محاكاة أو انعكاس ، ولكن الدراما هي الحقيقة ، والفن الحقيقي هو الذي تهيمن عليه الحقيقة المجردة .

بين طبيعة الدراما والحقيقة :

وما دامت الدراما هي الحقيقة ، والحقيقة في تصورنا الاسلامي مطلقة مجردة علوية ، فهل يعقل أن نتبع هذه الحقيقة المطلقة ، ثم يبقى على الأرض شيء من موجبات الصراع الذي هو عنصر أساسي في الدراما ؟

يقول الباحث :

إن الشيطان ما زال قائماً بيننا ، لم يرحل عن أرضنا ، وهو يعمل بجد ونشاط ، إذن فأقوى موجبات الصراع باق في تصورنا الاسلامي ، ومع إعمال الحقيقة المطلقة التي ينبغي على الأديب المسلم أن يلتزم بها .

فالالتزام في الاسلام إنما هو التزام بالحقيقة الواحدة وما ينبثق عنها من تصور اكبر واعمق واشمل ، لا يسع المجتمع المسلم وافراده إلا أن يلتزموا به إن ارادوا ان يتخطوا ما فرض عليهم من التخلف في عصور الضعف والاستعمار ، حتى يلحقوا بركب التطور البشري .

لقد رسخ هذا التصور مثلاً في نفس علي احمد با كثير ، وداب على تجليته من خلال الالتزام بالحقيقة في سائر اعماله الأدبية مسرحية وقصصية وشعرية .

الالتزام بالحقيقة ... والمذاهب الأدبية :

تنطلق الدراسة في هذه النقطة من مبدأ يعد المذاهب الأدبية والفلسفية امراضاً أو جراثيم حضارية أصيب بها المجتمع الأوربي ثم صدرت إلينا ، وإذا اخذنا فرنسا كقطاع من هذا المجتمع وجدنا أن ما يسمى بالكلاسيكية قد ولد فيها بأوامر ملكية وبابوية لمقاومة تأثير الشعر العربي في مجتمع فرنسا ، فكان الكاردينال « ريشيليو » يصدر تعليماته للمؤلفين بكتابة مسرحيات تحاكي أعمال الرواد من الاغريق والرومان وتمجد التضحية بالنفس والمال والأحباب في سبيل الواجب .. ولما بدأ المجتمع يغلي بالثورة على الحكومة ـ حكومة الاقطاع ـ راجت أفكار تدعو إلى الحرية الذاتية والفردية وإطلاق العنان للعواطف المكبوته والثورة على كل قيد يكبل الانسان والمجتمع .. فكانت الرومانسية التي أغرقت هذا المجتمع في الفوضى والثورة التي أكلت نفسها بنفسها ولم يكن بد من مقاومة هذا التيار بعد أن استفحل خطره ، فوُجدت الحاجة إلى مذهب جديد يوائم الروح العملي والعلمي الذي واكب ركب التقدم ، فكانت الواقعية التي ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي .. وهكذا كانت تولد المذاهب في المجتمعات الغارقة في فراغ من العقيدة الحقة ، ومن أسف أن يتابعها في هذا مجتمع مسلم .

هل أصف ـ بعد ذلك ـ شاعراً كشوقي بأنه كلاسيكي ؟

فهل حارب شوقي تاثير الشعر العربي في نبلاء فرنسا ؟

او هل التقى والكاردينال ريشيليو فامره هذا بمتابعة أجداده فيما كتبوه ؟

إن رفض هذه المذاهب الأدبية نابع من اعتماد التصور الاسلامي والالتزام به .. بالحقيقة المطلقة .. نبعاً فياضاً لا بديل له ليكون دستور حياتنا الفنية ، ورفضاً لكل محاولة يقوم بها كتابنا ونقادنا في محاكمتنا إلى فكر مستورد !

وبعد ..

فإن رسالة الدكتور كاظم الظواهري للدكتوراه خرجت من الجامع الأزهر .. فهل آن الأوان لأن يحمل رجاله ـ رجال اللغة العربية وأدبها ـ لواء ظهور الأدب الاسلامي والمسرح الاسلامي ظهوراً يصبح به تياراً فعالاً ومؤثراً في حياة البلدان الاسلامية .. فيظهر نور الحق .. وتختفي إلى الأبد جاهلية الفن والأدب في القرن الخامس عشر الهجري ؟!

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) صدق الله العظيم .